المستشرقون والتصوف :

الشريعة والطريقة والحقيقة

للمستشرق

رينولد . نيكولسون

استهوى التصوف الاسلامى طائفة كبيرة من رجال الاستشراق ، تخصصوا فى دراسته ، وتعمقوا فى تحليله ، وأفنوا حياتهم فى الكشف عن قواعده وكنوزه .

وقد اعترفوا جميعا بأنه قوة روحية عالمية ، وأنه القمة العالية للمعارف الاسلامية ، وأنه أحدث تطورا فى واقع الحياة العملية والايمانية والخلقية ، للامة الاسلامية .

ولا جدال فى أن رجال الاستشراق ، رغم جهودهم الضخمة فى الحقل الصوفى الاسلامى ، ورغم عمق تحليلهم ، وبراعتهم فى العرض ، وقدرتهم على البحث . قد أخطأوا حينا ، وتجنوا أحيانا ، لان التصوف ، تذوق وايمان ، قبل أن يكون براعة فى العرض ، وقوة فى الدرس .

وشيخ رجال الاستشراق بلا جدال هو العلامة « نيكولسون » ولعله أقربهم جميعا الى الاعتدال ، والى الروح العلمى الخالص ، وقد ألقى سلسلة من المحاضرات عن الأفكار البارزة فى التصوف الاسلامى أحدثت دويا فى البيئات العلمية الاوربية والاسلامية .

ونحن نقدم هنا لقراء « الاسلام والتصوف » ملخصا لاحدى محاضراته عن « الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة » وهى عناوين لجوانب عميقة وجليلة فى التصوف الاسلامى .

قال نيكولسون :

.. فى القرآن عدد غير قليل من الآيات التى تدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان على حظ من التصوف ، وقد استطاع الصوفية ، أن يبرهنوا بطريقة تأويل نصوص الكتاب والسنة ، على أن كل آية فى القرآن

تخفى وراءها معنى باطنيا لايكشفه الله الا للخاصة من عباده الذين تشرق هذه المعانى فى أوقات وجدهم ·

ومن هنا نستطيع أن نتصور كيف سهل على الصوفية بعد أن سلموا بهذا المبدأ أن يجدوا دليلا فى القرآن لكل قول من أقوالهم ونظرية من نظرياتهم أيا كانت وأن يقولوا ، ان التصوف ليس فى الحقيقة ، الا العلم الباطن الذى ورثه على ابن أبى طالب عن النبى ، وان وراء كل عبادة أو فكرة معنى مشرق لايدركه الا عالم عابد ·

كذلك الحال فى موقف الصوفية من الشريعة ، فقد قاموا بشعائر الدين بكل دقة بالرغم من أنهم كانوا يعتبرون أن صور العبادات مع جلالها ليس لها من القيمة ما لاعمال القلوب · وأنها فى جوهرها انما تدل على حقائق روحية فالحج مثلا رمز للبعد عن المعاصى ، والاحرام خلع للشهوات واللذات مع الثياب ·

وجمهور الصوفية يرون أن التحقق الكامل بالحقيقة ـ وهو الغاية التى سعوا اليها فى الطريق الصوفى ـ لايتعارض مع مراعاة أوامر الشرع فحسب ، بل ان مراعاة الشرع جزء لايتجزأ من نظامهم الصوفى العام وسيتضح لك هذا الرأى بعد شرح الاسس الاخلاقية والسيكولوجية لطريقتهم ·

وقد سبق أن ذكرنا أن الصوفية اعتبروا أنفسهم خاصة أهل الله الذين منحهم الله أسرار العلم الباطن المودع فى القرآن والحديث ، وأنهم استعملوا فى التعبير عن هذا العلم لغة الرمز والاشارات التى لايقوى على فهمها غيرهم من المسلمين ، وكان ذلك مما دعا الى وجود روح عامة ألفت بينهم وظهرت عنها طوائفهم وفرقهم ·

ولم يدم الحال طويلا حتى دب النظام فى صفوفهم ، فجمع كبار المشايخ حولهم جماعات من المريدين ليدرسوا معهم آداب الطريق ، ثم أصبحوا بمضى الزمن أساتذة معروفين ، ومشايخ طرق على رأس زوايا وربط يعيش فيها الصوفية ·

وكان من مبادئهم أنه لابد للمريد الذى يدخل الطريق من شيخ يرشده ويؤدبه · وقد نظروا بعين الارتياب الى كل صوفى لم يصحب شيخا من المشايخ يتأدب به ، ويلزم الطريق الذى رسمه له ، وكان سلطان المشايخ على مريديهم سلطانا مطلقا ، وكان لهم وحدهم الحق فى أن يأذنوا للمريدين

الذين تم استعدادهم بان يأخذوا عهد الطاعة لهم ، وهو عهد كانوا يطالبون به كل من أراد الدخول فى طريقهم .

أما المدة التى يقضيها المريد قبل أن يؤذن له بالعهد فهى ثلاث سنوات يصفها « الهجورى » على النحو الآتى :

يقضى السنة الاولى فى خدمة اخوانه ، والثانية فى خدمة الله ، والثالثة فى مراقبة قلبه .

ولا يكون فى خدمة اخوانه حتى يؤثرهم جميعا على نفسه ، ويعتبرهم خيرا منه ، ويعد من واجبه خدمة الكل على السواء ، ولا يكون فى خدمة الله حتى يجرد نفسه عن كل رغبة تتصل بالدنيا أو الآخرة ، ويعبد الله لذاته ، ولا يراقب قلبه حتى يحصر جميع همه فيما أقبل عليه ، ويترك كل مايشغل باله ، حتى لاتتطرق الغفلة الى قلبه فى حال مناجاته مع الله.

أما المبالغة فى احترام المريدين لشيوخهم فأمر معروف ، حتى انه ليؤثر عن ذى النون المصرى أنه قال « طاعة المريد لشيخه من طاعته لربه » .

ويطلق الصوفية اسم « الطريقة » على مجموعة القواعد والرسوم التى يفرضها الشيوخ على مريديهم ، ويشبه الطريق الصوفى فى جملته ما كان يعرف فى التصوف المسيحى فى القرون الوسطى « طريق التطهير » حتى كان أقوى أسلحة المجاهدة فى محاربة النفس ، الايثار ، والذكر الدائم ، والتأمل الباطنى .

وتتألف طريقة الصوفية من جملة مقامات يجب على السالك أن يتحقق بها ، ولا ينتقل من مقام الى المقام الذى يليه حتى يصل الى درجة الكمال فيه ، وتختلف هذه المقامات فى عددها وترتيبها ، ولكن جرى العرف باعتبار مقام التوبة أول هذه المقامات ، وأعنى بالتوبة الفرار من المعاصى ، والالتجاء الى الله .

أما الغاية الخلقية من الطريق الصوفى فهى انكار الذات الذى يتمثل فى الزهد فى الدنيا ومتاعها ولذاتها ، وفى الصدق فى القول والعمل ، من غير نظر الى مدح الناس أو ذمهم ، وفى الصبر والخشوع والاحسان الى الخلق . والتوكل على الحق والاذعان التام لارادته .

وللسالك فوائد يجنيها من الطريق ولكن للوصول الى غايته لابد له من مجاهدة النفس . والمراقبة . والذكر . ونحو ذلك مما من شأنه أن يجعله على استعداد لاحوال الوجد والجذب . وقد لايصل الى غاية الطريق البتة .

لان الوصول الى الله أمر لاينال بالكسب . بل هو موهبة يهبها الله لمن يشـاء .

ولكن كان للصوفية طريقة خاصة يهيئون بها أنفسهم للكشف والاطلاع على الغيب . وكثيرا ما كان ينكشف لهم الغيب بهذه الطريقة . أعنى بذلك ماسموه بالذكر وأحلوه من طريقتهم أعظم محل . واعتبروه أكبر ركن من الاركان العملية فى الدين .

وأبسط صور الذكر . ترديد اسم الله . أو قراءة بعض الاوراد مع توجيه القلب توجيها تاما نحو الله .

وأول مرحلة فى الذكر الغفلة عن النفس . وآخرها فنـاء الذاكر فى ذكره من غير أن يكون له شعور بذكره . واسـتغراق الذاكر فى المذكور بحيث يمتنع عليه الرجوع الى نفسه .

ولنذكر الآن موجزا عاما عن سيكولوجية الصـوفى من حيث علاقتهـا بحياته الوجدانية . كما صورها القشيرى فى رسالته . والغزالى فى النصف الثانى من الاحياء .

فى الانسان أربع قوى تتألف منـه طبيعته . من حيث هـو كائن حى حساس عاقل : وهى النفس ، والروح ، والقلب والعقل . أما النفس فهى شر محض ، لانها مركز الشهوات ، ولذا تجب محاربتها بجميع وسائل الزهد التى يسميها الصوفية بالجهاد .

وأما القلب والروح — ويضيف اليهما القشيرى ثالثا هو السر ، أو عـين القلب — فهما الاداتان الحقيقيتان فى حياة الصوفى . وان كنا لانستطيع أن نميز أحدهما من الآخر تميزا واضحا . ومهما يكن من الامر فالصوفية لايستعملون اسم القلب للدلالة على تلك المضغة الجاثمة فى الصدر ، بل يعنون به جوهرا لطيفا غير مادى تدرك به حقائق الاشياء ، وتنعكس عليه كما تنعكس الصور على المرآة .

ولكن مقدرة القلب على ادراك الحقائق وقبول صورها رهن بصفائه ، لان حجبه تختلف لطافة وكثافة بحسب مايؤثر فيـه من الحواس والشهـوات والمعاصى وحب الذات ، كما تختلف بحسب مايستفيده الانسان من الكتب وما يأخذ به من العقائد التقليدية الى غير ذلك .. ولكن بمقدار ماينكشف عن القلب من هذه الحجب تكون قدرته على المشاهدة وادراك الحقائق . والله وحده هو مطهر القلوب . ولكن أهل الطرق من الصوفية يرون أنه لابد من

ملازمة الذكر والمراقبة . ليصفو القلب ويخلو من كل شيء عدا ذكر الله .

وتخضع المقامات التى هى جزء من الرسوم العملية فى الطريق الصوفى للاحوال التى تتمثل فيها الحياة الصوفية الروحية ، فان الاحوال معان ترد على القلب من غير تعمد من الصوفى ، ولا اجتلاب أو اكتساب له وانما تحل فى قلبه وتزول عنه كما يريد الحق ، وذلك مثل الطرب والحزن والبسط والقبض والشوق والانزعاج والهيبة ، وصاحب الحال مترق عن حاله ، ينتقل من حال الى حال ، وان كانت الاحوال قد تبقى وتدوم زمنا طويلا

وقد قسموا الاحوال الى أزواج من الاضداد ، كالخوف والرجاء ، والقبض والبسط ، والحضور والغيبة ، وهو تصنيف يتفق مع الحقائق السيكولوجية التى يعرفها الباحثون فى التصوف .

والصوفى ابن وقته ، لانه فى قبضة خالقه الذى يقلبه فى الاحوال ، فهو غائب عن ماضيه ، لايخطر بخاطره خاطر عن مستقبله ، وأرقى الاحوال جميعا حال الجذب — أى حالة الاصطفاء من الله —

أما كرامات الاولياء فى نظر الصوفية ، فهى أمور يجريها الله على أيديهم ، ومواهب يهبها الله اياهم ، لان شعور الولى نحو ربه يحول بينه وبين ادعاء نسبة كراماته الى نفسه ، ولكن بينما يعتقد خاصة الصوفية أن الاعتماد على الكرامات يمنعهم من الوصول الى قلب الحقيقة ، وأن أعظم كرامة للولى هى فناؤه عن الصفات الذميمة ، وبقاؤه بالصفات الحميدة ، لايستطيع عامة الصوفية مهما حاولوا أن يحولوا بين أنفسهم وبين الشهرة عن طريق ما يظهره الله على أيديهم من القوى ، التى يسميها المسلمون خوارق العادات ، ويسميها الاوربيون قوى فوق الطبيعة

وقد اعتبر الصوفية ، الحب سر الوجود وعلته الاولى ، كما اعتبروه بابا من أبواب المعرفة الباطنية

فالحب ، والذكر ، والصفاء ، والزهد ، والمجاهدة والكشف ، كلها معانى حية يعيش فيها الصوفى ، ويدير حياته حولها ، ولقد بلغ من شيوع هذه المعانى فى البيئات الاسلامية ، أن أصبح الاسلام دينا صوفيا الى حد كبير .